قصيدة (ارتسامات اولى لوجه البحر) للشاعر ذنون الاطرقجي ـ قراءة في دلالة البحر ـ

م.م. ريم محمد طيب حفوظي
جامعة الموصل / كلية الآداب

تاريخ تسليم البحث : ٢٠٠٨/٥/٢١ ؛ تاريخ قبول النشر : ٢٠٠٨/٩/٧

ملخص البحث :

يتناول هذا البحث قصيدة "ارتسامات أولى لوجه البحر" للشاعر ذنون الأطرقجي عبر قراءة أولية تأملية هدفها الكشف عن مكنونات البحر وما ينطوي عليه من الدلالات التي تشكل دوراً وظيفياً في بناء العمل الادبي .

ولعل أهمية هذه القصيدة تتمثل في طاقاتها الشعرية العالية التي حافظت على شـــفافية لغتها على الرغم من كونها تعالج موضوعات مستلة من صلب عالم قاسٍ .

كما أن القصيدة امتلكت مجموعة من التقنيات الفنية التي أسهمت في صياغة شـــعرية متميزة بتلاحمها مع دقة اللحظة الحرجة المتأزمة التي ولدت فيها .

"The First Expressions of the Face" A Poem by : Thanoon Al-Atrakchi A Reading of the Sea Indication

Asst. Lect. Reem Mohammed Taib
University of Mosul/ College of Arts

Abstract:

The study deals with A Poem by Thanoon Al-Atrakchi (The First Expressions of the Face) through a meditative primary reading that aimed at revealing the secrets of the sea and what indications it includes which play a functional role in its structure.

Perhaps the significance of this poem is represented in its high poetic energy, which preserved the transparency of its language despite the fact that the poem tackles topics that were extracted from a merciless world.

In addition to that, the poem comprised a set of artistic techniques, that participated in constituting a distinguished poetic form which was characterized by the precision and accuracy of the crucial moment at which the poem was born.

تشكل موجودات الطبيعة عناصر مهمة في العمل الابداعي ، "اذ نجد ان تلك العناصر بخصوصياتها الجمالية خير رافد يضفي على عملية الابداع ديمومة اتصالها بجماليات المكان والبيئة وخصوصياتها"[١] ، بوصف الطبيعة مجموعة من الاشياء المرئية المدلول عليها بكلمة العالم ، وكان للشعر الحديث مثل هذا التماس المباشر والمستمر مع خصوصيات الطبيعة لسعة المساحة القادرة على الوصول بها الى حد الرمز والدلالة بل لإمكانياته في التعبير عن حالات نفسية واجتماعية وسياسية بعيدة الغور والتأثير في تحول المجتمع واستمرار حركته[٢] . لذا فأن التوظيف الفني الناجح للطبيعة هو ذلك الذي يجعلنا نراها عنصراً يحتل مركزاً من اهتمام المبدع ويشغل مساحة لونية تلعب هي وغيرها من الوان العمل الادبي وعناصره المختلفة دوراً وظيفياً في حركة بنائه وتطوره[٣] .

من هنا فان لدراسة توظيف الشاعر للطبيعة في العمل الشعري اهمية كبيرة فهي من جانب تكشف لنا عن اتجاه الشاعر وطريقة نظره الى الطبيعة بوصفها جزءاً من العالم الخارجي وتفكيره فيها ، كما تكشف لنا من ناحية اخرى عن قدرة الشاعر على تشكيل عناصر لوحته وطرق استفادته من العناصر الجزئية في الكشف عن الحدث الشعري[٤] . لذا فأن مفهوم الطبيعة لا يقتصر على مجرد المظهر الطبيعي الذي يلجأ اليها الشاعر لاضفاء طابع معين على شعره ، وانما يتجاوز ذلك ليصبح معادلاً رمزياً لما يجري من مشاعر انسانية وافكار واحداث يكسبها دلالات تسهم في الكشف عن ابعاد الموقف المادي والنفسي للعمل الابداعي .

اذ تأتي عناصر الطبيعة في الشعر احياناً ملهمة الشخصية لفكرة ما ، ومعبرة عن الحديث او الفكرة الملازمة للطبيعة الخارجية ، فكأن الطبيعة بذلك تأخذ شكلا رمزيا للفكرة المطروحة[٥] لذا لجأ الشعراء الى توظيف الطبيعة وعناصرها "بوصفها غابات من الرموز تلحظ الانسان بنظرات اليفة"[٦] .

لقد اتجه الشاعر الى الطبيعة وبخاصة البحر ليعبر من خلاله عن معاناته . ويبدو ان البحر والنهر والبئر وبقية مصادر المياه وكذلك من عناصر الطبيعة كالاشجار شكلت روافد

غنية لإشباع حاجات الشاعر للتعبير ، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعالم الطفولة التي خلقت الفة بين الشخصية والمكان ونعني به – البحر– ذلك المكان الواسع . اذ سمي البحر بحراً لاستبحاره وسعته وانبساطه[٧] وله خصوصية في افق المياه فهو مساحة مائية هائلة ، لكن الشعر قد ينحو بهذه الكتلة المائية مناحي متعددة ، والشاعر في هذا البحر يستنهض الخفي من الاحاسيس والرؤى والمشاهدات المخزونة في عقله الباطن ويعطيه مؤشرات جديدة طقسية مرتبطة بالمثيولوجيا والاساطير والحكايات التي استنبطها العقل البشري وسط بيئات مفعمة وغنية بالرمز الدال . استطاع الشاعر خلال ذلك ان يؤسس مقولات ومعتقدات ارتبطت بالموروث الشعبي والاسطوري الذي زخرت به ذاكرة الشاعر والتي حولت الاشياء الى رموز ومدلولات .

إن البحر والمصادر الاخرى كالاهوار والانهار والابار كانت خير عون لكثير من الشعراء بوصفها دلالات على حركة الحياة ونمو الفعاليات وتطورها ، ولعل الشاعر ذنون الاطرقجي واحد من الشعراء المبدعين العراقيين الذين اهتموا بالبحر واسقطوا افكارهم عليه واستمروا في تاكيد دلالاته ، حيث استطاع هذا الشاعر ان يحول هذا الرافد الطبيعي الى طاقة للتعبير عن الافكار والهواجس بمنحه دلالات خاصة استجابة للكوامن النفسية ولأحلام الطفولة المختزنة التي تنحصر دلالاتها في الظواهر النفسية والاجتماعية والسياسية – وهي تؤرخ – أي البحار كأماكن – حياة الشخصيات – وتمنحها القدرة على التأثير والخلق والوجود الفاعل في الواقع ، فالبحر يمنح قدرات للتعبير عن الجوانب النفسية لحياة الشخصيات ويمنحها قدرة على التأثير لانه يشكل مصدر اخصاب ونماء وحياة وهو من ثم منعطف لادراك الاشياء والظواهر الخفية ، وبذلك يكون هذا الارتباط بالبحر ارتباطا حياتياً عند الشخصيات ، ولحركة البحر وجريانه دلالات تعبر عن الزمن خاصة الزمن الصعب أي ان بعض استخدامات البحر تقيس زمنها من خلال حركته سواء اكانت سريعة ام بطيئة ، وهو بهذه المستويات يؤشر الى دواخل الشخصيات ، ويحدد ايقاع الزمن ثقله على نفوسهم وتشكيلهم السيكولوجي[٨] .

ان مخيلة الشاعر تلعب الدور الاساسي في تعميق دلالات مفردات الحياة وخلق دلالاتها الاسطورية الامر الذي يتطلب من المبدع استيعاب الموروث الشعبي وحكايات الاسلاف سواء كان هذا الموروث على المستوى المحلي ام العالمي ثم النظرة الفاحصة والواعية لحركة الحياة وتطورها[٩] .

لقد نجح الشاعر في توظيف البحر باتجاه دلالات متنوعة بحيث كان للتعبير عن الحالات التي تناولها طاقة خاصة ومتميزة شحذت المخيلة الابداعية من اجل التوغل في الجزء الغامض من النفس البشرية عبر نمط ابتكار الشعر واستخدامه استخداماً بارعاً .

يشكل عنوان القصيدة (ارتسامات اولى لوجه البحر) اول مفتاح يساعدنا على الولـــوج الى النص ليشكل معه بنية متكاملة تتكون من الرأس – العنوان – والجسد بنية النص الشعري الذي لا يمكن العبور اليه الا من خلال العنوان ليدخلنا في عملية محاورة مع كلمات القـــصيدة وملفوظاتها ، ولما كان العنوان يحيل على مرجعيته[١٠] التي هي النص الشعري لذلك قررنـــا ان نبدأ المعادلة القرائية بالدخول في حوار مع عنوان النص ليكون قناة توصـــلنا الـــى فـــتح مغاليق دلالات وإيحاءات التشكيل لخلق معادلة متوازية اذ لا يمكن ان نفهم العنوان بمعـــزل عن النص ولا ان نفهم النص بمعزل عن العنوان من خلال انتقال دلالة البحر فـــي الـــسياق الاجتماعي والعرفي التاريخي الى سياق مرتبط بروابط جديدة في مخيلة الشاعر .

لقد حاول الشاعر ان ينقل البحر من عالم الواقع إلى عالم جديد مصغر عالم ابـــداعي يمثل نظرة الشاعر الى هذا البحر العميق والقديم بوجوده ليخلق منه فعلاً متناقضاً ينتج دلالات إيحائية وطاقات تنتقل في فضاء او سطوح الورقة البيضاء مشكلاً منها عالما عجيبـــا نـــسميه تجاوزاً عالم البحر الاسطوري .

ان عملية تبادل الادوار بين الشاعر والبحر ترجعنا الى موروث ثقافي صوفي فلسفي من خلال عملية الشد والجذب بين الذات والموضوع وذلك حينما تدهش عناصر الوجود ذات المبدع ، فانه يسعى الى امتلاك جمالية الدهشة والحفاظ عليها املاً في احداث انقلاب رؤيوي في ذاته اولاً وفي ما حوله ثانياً بوصفه موسوما بالاكتشاف والتغيير دون الركون الى مركز يحيله على وثنية حتمية مقيتة تجعله موجوداً مصاباً بالترهل والتقليد الذي يمـــسخ هويتـــه او يحاول ان يلغيها الى حد التلاشي ، ولم يجد الشاعر افضل من البحر مثيراً لدهـــشة التـــساؤل ومرآة لكوامنه التي انصهرت تحت طبقات الحياة وافرازاتها اذ اصبحت كلمة البحر هي التي تسكننا ولسنا نحن الذين نسكنها ، وتلك عملية لا يمكن ان نشاهدها او نحسها الا فـــي عمـــل ابداعي او شعري يحاول ان يخلق من التضادات الالفة ومن الالفة تضادات ليحقق لنا شاعرية نصية تحمل في طياتها طاقات دلالية تعوم في السماء لتجد لها عقلاً ابداعياً نقدياً لكي يحـــاور هذه اللفظة فيستشعرها ويجعلها في بوتقة المبدع[١١] ، واذا اردنا ان نفهم الشاعر فاننا سنحاول ان نجري حواراً بسيطاً مع نصه لكي يعطينا بعض النور وسط العتمة التي تحمل في طياتهـــا بصيصاً من الامل على شكل اشعاعات تضيء جوانب الكلمات لترى النور وهو يتدفق ليجعلها حقيقة الحقيقة ولنقول ان الشاعر هو نداء الحقيقة لانه يخلق عالمه الكبير ويحوله الـــى عـــالم صغير عالم تتراقص فيه الكلمات ليحمل فيه نوعاً من الحيوية التي وجدناها مـــابين ســـطور القصيدة والفاظها الندية التي تبلّلنا بريح ونسيم عالم الاطرقجي الذي يجعل من البحر تموجات النفس الانسانية التي يجدها كل انسان في داخله اللاواعي إذ يقف الناظر امام البحر مبهـــوراً بعظمته . وهذا ما سنحاول ان نوضحه في قصيدة (ارتسامات اولى لوجـــه البحـــر) لـــذلك

سنحاول تجزئة القصيدة الى مقاطع . يمثل المقطع الاول المرحلة الاولى لدى الشاعر والــذي يمكن ان نجده في العبارات الاتية التي تحمل في مستواها الدلالي طاقــات ايحائيــة تلامــس مكنونه :

اكتب المدن المستريحة

والحب

والسنوات القصيرة

اغيّر جوفي واحشوه

بالومض

والثمر اللؤلؤي

واغسل عيني باللون

اسكبها في يدي

ثم ارسم اغنية كنت اعشقها

لم اكن احسن الرسم ...[١٢]

تبدأ القصيدة بكلمة (اكتب) والضمير هنا يطرح نفسه مشروعاً ، هكذا توحي البدايــة من خلال (اكتب ، المدن ، اغيّر جوفي ، اغسل عيني ، اسكبها ، ارسم ، اغنية) التي تدخل في علائق مع سياقها بشكل مترابط لتنعكس بصورة تلقائية بذات الشاعر ، عن طريق محاولة احتواء الاخر باستخدام آليات تراسل حواسية لتخلق نوعاً من التعاضــد الادائــي والــوظيفي بواسطة الكلمات والرسم لتحتوي الاخر الموجود في مكان موضوعي خارج الكلمات ، محاولة الرسم والكتابة التي تنتهي الى الاخفاق اللانهائي وذلك من خلال عودته مرة اخرى للاعتراف بذاته من خلال قوله :

لم اكن احسن الرسم

والتي تحمل في طياتها مفارقة عجيبة ، لان الرسم هو احد ادوات الفنان الذي يحيلنــا الى سؤال اشكالي ، هل حاول الشاعر ان يخلق لنفسه فناً ويرسم بكلماته الالوان ؟ ليخرجنــا الجواب الى المحاولة التي حملتها الالفاظ التي عبرت عن الفعل والتي سوف نحاول ان نتأملها تأملاً يساعدنا على اثبات حقيقة الفعل الدؤوب ليصدمنا استهلال القصيدة بكلمة (اكتب) التــي تحمل في طياتها مدلولاً عميقاً ، هذا المدلول يأتي بعد فضاء ابيض ليخلق فجــوات تأويليــة تساعد المتلقي على ملء هذه الفجوة استجابة لفعل القارئ كما قال ايزر[١٣] ليعطينا من خلال ذلك كشفاً وايضاحاً بالمكتوب بعد ان قطع الاتصال الحواري . (اكتب) في مستواها اللغــوي والنحوي فعل مضارع يعمل على الية الاشتغال والحضور هذه اللفظة الغنية بمدلولها السياقي

اذ لا يخفى ما لصيغة الفعل المضارع من حسن المطاوعة والحركة والاستمرار من خلال (اكتب ، اغيّر، اغسل ، اسكب ، ارسم) التي تكشف عن نوع من العلاقة والحرص الذي توثقت من خلاله الطبيعة وصلتها بهذا الموضع . فالشاعر هنا يحاول ان يختبئ خلف الكلمات لكي لا يطل علينا في اول استهلالته بما يختلج في نفسه من اضطراب لعل اللفظة التي سوف يذكرها تحاول ان تكون منقذه او المحافظة على توازنه والتي سوف تأتي في ثنايا النص ، تبدأ بـ (اكتب) – (انا) فالسؤال هنا لمن اكتب؟ أاكتب للمجهول ، ام للمدن او للحب ؟ كل هذه في نظره سنوات قصيرة لا يمكن ان يختزلها الا بتغيير الجوف واحشائه بالومض والثمر اللؤلؤي وهذا ما ردده بقوله :

اغيّر جوفي واحشوه

بالومض

والثمر اللؤلؤي ...(١٤)

اذ ان كلمة الجوف وما تنطوي عليه من معان كثيرة من جوف الانسان ، عقله ، قلبه، شرايينه ، ليخلق منه ذاكرة لانهائية تحتاج الى ادوات غير عادية لا يستطيع الشاعر ان يوفرها الا من خلال تجاوزه على جنس اخر هو الرسم . وعندما عجز عن تطويع كلماته اتخذ اللون قناة اخرى لايصال رسالته التي تجسدت في لوحة لم ترسم بعد وذلك بسبب ضعف الامكانات التي تجمعت في نهاية هذا المقطع ، ولكن من خلال عدم معرفة الشاعر للجنس الذي اخذ يتلاعب به لكي يرسم هذا الحب والمدينة لانها ليست من ادواته لذلك قال :

لم اكن احسن الرسم

وفي قوله :

كنت احب الحشائش والتوت

والقصص المستحيلة

ارسم بالعين

ارسم بالاذن

كان التجانس في الروح معزوفة

لم اطق رسمها ...(١٥)

يمثل هذا المقطع نظرة ماضوية . لانه يشكل ماضياً حزيناً بعد ان حاول ان يكتب المدن المستريحة والحب وذلك بعد المحاولة والخطأ ليحمله اللاوعي عن طريق النكوص النفسي نحو التشبث بأمل ضئيل هو أمل الماضي المنقضي لذلك قال في بداية هذا المقطع

(كنت) وهو فعل ماض ناقص يحمل في دلالاته عملية انشطار دلالي ما بين نقص الفعل وتامية الفعل ليدخل في علاقة تكاملية تحاول السعي نحو ردم ذلك النقص في تكامل الاسم والخبر معاً . واذا اردنا ان نربط بين دلالة التركيب للفعل الماضي الناقص الذي لا يتكامل اداؤه الا بوجود الاسم والخبر لكي يؤسس عملية توحد في التركيب تمكننا من ان نخلق هذه الدلالة للفعل المضارع .

لذلك حاول الشاعر ان يحافظ على توازنه بالرجوع الى احلام الطفولة البريئة الماضية التي انطوت على الفعل الماضي الناقص في لفظة

كنت احب الحشائش والتوت

اذ ان الشاعر كان لديه تصور اولي عن النقص الذي كان يرسم به عن طريق النظر والسمع اللذين كونا له هذه المعرفة التي اصطدمت بالحقيقة وظن انه من خلال معرفته القديمة لها قادر على ان يحتويها الا انه تفاجأ عندما وجد ان هذا التجانس في الروح والذي يتصور انه يملكه قد تلاشى في اول مواجهة حقيقية ادت الى العجز في قوله :

لم اطق رسمها

لذا حاول الشاعر ان يحافظ على توازنه من خلال عملية دمج الماضي بالحاضر اذ ظن انه احب حد التلاشي بحيث امتزج لديه الحب الغريزي بالسياسي بالحلم فالحب مستمر متوالد في قوله :

واحببت حد التلاشي

ووقعت اغنية العدم المحض

احببت حلما وسيفا

غمستهما في البساتين

لم يورق السيف

والحلم عصفورة سقطت في الاثير

واحببت ...[١٦]

والتي مثلت اعترافاً اخر لذاته بالعجز عن توصيف هذا الحب الى محاولة استذكار الماضي الجميل الذي يمثل البراءة التي تجسدت في لفظة (الحلم) وهي تحمل معنى مفعماً بأحلام الماضي والحاضر والمستقبل وهو بهذا يمثل تلاقي ثلاثة ازمان في جسد واحد هو جسد القصيدة ليخلق منها (لذة ابدية) هي وليدة احساس خارجي بما ينطوي عليه الواقع من مظاهر الخداع التي تكشف في المعنى الواحد وجهين متضادين وهذا ما تمثله لنا عملية المفارقة التي "تعين المبدع على الانفلات من دائرة المباشرة والبساطة والدخول في افاق

الضبابية الجمالية والشفافية البعيدة"[١٧] ففي النص مفارقة عجيبة لدى الشاعر بين حبه للحلم وحبه للسيف الذي يمثل دلالة الحرب والقوة مما ادى الى مفارقة حاول الشاعر ان يجسدها بمفترق طريق الواقع الذي يمثله السيف والذي لم يصل الى نتيجة طيبة ، والحلم الذي تلاشى امام صخرة الواقع وذلك ادى الى تصارع الادوات والى خلق حالة من عدم التوازن في ذات الشاعر الذي اصبح الحلم امراً قائماً في حالة كآبة حتى انه لم يعرف طعم الحب ليأتي سؤال محير لدى الشاعر في قوله :

هل كان بغضاً ؟

ان السؤال هنا لا يرضى بانعطاف النص نحو الجواب بحرف (جواب) واضح لأنه اوقع السؤال في زمن الانتظار الذي امتد على طول القصيدة ، ولكن السؤال هنا مرتبط باجواء القصيدة المرسومة بطقوس كرنفالية من خلال :

ووقع الاغاني يلاحقني

فالملاحقة ممتدة على مسافة النفس التي ازداد توترها بالرغم من الطرب الذي تشعر به لان المفاجأة اربكته ، فاذا تأملنا استفهام الشاعر (هل كان بغضا ؟) الذي يحتاج الى جواب مسكوت عنه ليخبرنا من خلال تراكيب الجمل وما تنطوي عليه من دلالات ايحائية مترابطة منسجمة والتي تفاجئنا في خلق صورة مكثفة تتجمع في بؤرة مركزية تعمل على اشتغال الذات بين المعلن والمسكوت عنه من خلال قوله :

وفاجأني البحر

القيت رحلي اليه

والقيت اغنيتي

ومددت سمائي ... [١٨]

فالشاعر هنا يقف وقفة باهرة متفاجئة امام البحر هذه اللفظة التي لا يمكن ان نفهمها الا من خلال سياق النص الشعري الذي اخذت اطراف الفاظ تراكيبه في نسقية القصيدة تتجمع من خلال البؤرة المركزية للقصيدة عبر عملية الشد والجذب للنفس الانسانية بالفعل ورد الفعل من يأس الى حلم والذي يمكن ان نلاحظه من خلال لفظة البحر التي تكررت في القصيدة مرات عديدة بجوانبها المضيئة التي تخرج من (الانا) التي اتكأت على ركيزة البحر مشكلة منها انطلاقة تشوه وتبعثر الكلمات لتجعل منها مركزاً يتكئ عليها الشاعر الذي بدأ بالمفاجأة في قوله :

وفاجأني البحر

فقد ازدحمت القصيدة بالحركة التي جسدها توالي الافعال بصيغة العطف (الفيت/ مددت) وكأنه ينتظر هذه اللحظة التي ترفع عن كاهله (الرحل/الاغنية/السماء) وماذا تبقى للشاعر؟ اذ ان ذاته قد انكفأت دون التماهي مع البحر كي يستطيع ان يرسم البحر في لوحة تشكيلية تعي اضطراباته التي سبقت بمفاجأة البحر فلفظة البحر اخذت تشتغل على كونية فريدة لتخلق منها بؤرة اشتغال على طول النص الذي يبدأ من العنوان الذي تجلى لنا بارتساماته الأولى من خلال النص الشعري الذي حاول ان يحفظ توازن الكلمات فيه التوازن النفسي للشاعر ، اذ ابتدأنا بكلمة (وفاجأني البحر) لننطلق من هذه اللفظة (فاجأني) التي تنطوي على دلالات غنية في سياقها وتحمل دلالة التعجب والدهشة وعدم معرفة الحدث المقبل وكذلك تحمل دلالة الانبهار والعظمة لانها جاءت مجاورة لمفردة البحر فالشاعر خلق لنفسه حالة لا يمكن ان تخلق الا من خلال لفظة (فاجأني) التي تجلت عبر معرفة الشيء وعدمه في قوله :

القيت رحلي اليه

القيت اغنيتي

ومددت سمائي

إذ أن الشاعر هنا حاول ان يستعين بالبحر ليلقي همومه واحزانه التي وجدت لها صدراً رحباً في البحر لذلك القى بها الشاعر إليه مستسلماً بعظمة إعجازه :

واعجزني اللون ان ارسم البحر

صرت اجيء اليه واسمعه

ثم يربط بين ذلك كله وبين اللون الذي تحول هنا من المفاجأة الى الالقاء الى عملية الغموض بعد معرفة الآخر وهو الاعجاز الذي عجزت حتى لوحات الفنانين عن رسمه لانه بحر يحمل بالمد والجزر سمة تحاورية لا يفهمها الا من يتحداها ، فالعجز لم يكن سمة اللون ولكن تبدلات البحر هي التي استعصت على سلطة اللون ، وهي التي دفعته الى قطع المسافة وتحمل اعباء المجيء (اعجزني) هذه اللفظة التي تحمل في دلالتها الامتداد الواسع الذي توقفت امامه ريشة احسن فنان او رسام فقد وقف امامه الشاعر حائراً يسمع هسهساته وصار يمد يده اليه من خلال المد والجزر البحري الذي لامس آنية الشاعر وتغلغل في جميع اجزائه ووجدانه وعواطفه من خلال قوله :

ثم ارسل عينيّ ترسمه وتحاوره

وكان يجيء الى جسدي

ويمد اياديه

يعزف اغنية ثانية ...[١٩]

فالعين هي "الفرشاة واللون" وهي التي تمتلك خاصية التحول تبعاً للشيء المرئي وهذا ما مكنه من ايقاع البحر في "مصيدة التشكل" بالرغم من مراوغته واضطرابه حتى وصل به الامر الى ان يجسد البحر ويضفي عليه صفات

الحركة (يجيء الى جسدي)

المغازلة (يمد اياديه)

التودد (يعزف اغنية ثانية)

اذ ان الضعف الذي يشعر به الشاعر (اعجزني اللون) تحول الى مكامن قوة وتسلط لان العجز هو مادفع البحر الى(المجيء ، مد اياديه، يعزف) فقد كانت معادلة حولها الى حالة ايجابية دفعت البحر الى ان (يعزف اغنية ثانية) ، وهنا استطاع الشاعر ان يشكل علامة اتصال استطاع من خلالها تجسيد (اعضاء البحر) وتكوين علامة ايجابية تمنحه الرغبة في التبادل"الطوبوغرافي" مع البحر الذي استطاع ان ينتزع منه حق الاعتراف والخضوع لما في دلالة "يعزف اغنية ثانية" من اهمية جعلت الشاعر يمارس تجاربه الانفعالية دون تحديد مركز يطمح الوصول اليه ، حتى ان تراتيبية الزمن قد اربكها الشاعر بقوله:

داء قديم هو اللون

والبحر يملؤني بالاناشيد والرعب

يعجزني ويراودني

كلما جئت اسأله رؤية ثانية

لم اكن بالمخير ... (٢٠)

ومن خلال هذا التحاور الهادئ ما بين الشاعر / البحر والذي رمز له باللون الذي يمتزج مع امواج البحر ليخلق هالة تحاول ان تملأ ذات الشاعر ونفسه بالتناغم من خلال حركات البحر التي لامست جسده الخارجي وخلّفت فجوة بين كينونة الشاعر وعالمه الواقعي الذي حاول هذا البحر أن يحمل في طياته اناشيد الرعب لذلك قال :

لم اكن بالمخير

والتي تحمل من خلال هذه الأسطر نفساً لم تكن متخيرة لأن الاقدار هي التي تحركها كما يحرك (المد والجزر البحر) وذلك ما يعرف بقانون الطبيعة(٢١) الذي حاول ان يراود الشاعر في نفس اللحظة الزمنية ويعجزه ويرعبه لانه استلبه مما جعل الشاعر يهوم في ذكرياته البعيدة ليخلق له جواً جديداً يحمل براءة الاطفال من خلال قوله :

هذي الطفولة موج يسافر

والخوف خل قديم

يجيء من البحر

ذلك التفكير البسيط الذي يمثل طفولة الفكر في بداية تكوينه إذ يخاف من الاشياء الخارجية المتمركزة في عالم لم يكن يألفه لانه عالم يمثل المرحلة الاولى من التفكير تمركزاً وتمحوراً حول نفسه عندما كان يعتقد ان العالم الخارجي يمثل حالة من التماهي مع الطبيعة الانسانية التي ما عاد يستكشفها ولا يستوعبها الا انها تمثل له شكلا من الاستلاب الذي يصور نوعا من الخوف والدهشة[٢٢] التي تمثل المرحلة الاولى من مراحل الاستكشاف لدى الاطفال وقد حاول شاعرنا حقاً ان يسطرها بنوع من الخوف من المجهول الذي يتراءى للانسان الاول الذي يخاف من كل شيء عندما لا يرى فيه نهاية وهو بهذا يمثل في الموروث الشرقي القديم مفهوم البحر الذي يخلق امام مشاهديه حالة من الخوف ، ويحاول الشاعر ان يدخلنا في محاولة جديدة مع البحر ليلامس اعماقه اذ قال فيه

هذي الطفولة موج يسافر .

فهو قد خاطب الماضي (البعيد/الطفولة) بصيغة الحاضر(القريب/هذي) الا ان طفولة الشاعر تتجدد إذ يبقى الشعراء والاطفال هم من يمتلكون المخيلة بالرغم من سطوة الالة ، الا انها طفولة قد آخت "الخوف" وهو صديق قديم للشاعر كان مبعثه من البحر ، لكنه الخوف واي خوف ؟ انه الخوف الذي يجيء من خلال

والحب دهشة لألائه

في ضحئ وادع

والبواخر اسئلة

لا تلامس اعماقه ...[٢٣]

فالبحر هنا بحر مربك مزدحم بكل تراتيل الوجود حيث يستقر في قلب(الخوف/الحب) وتتحول (البواخر/اسئلة) لكنها لا تلامس اعماقه لأن سحر البحر ودهشته يمكنان الشاعر من المجهول فالبحر يحمل في احشائه المجهول من خلال قوله:

البحر هذا الجنون العظيم

أطير بحجم الخرافة

حطّ على الارض

فما يتوافق مع الجنون هو "الخرافة" تلك المفردة السحرية في بؤرة تكوينها ، فالخرافة كما يعرفها يونج اعتقاد راسخ بالقوى فوق الطبيعية وفي الاجراءات السرية أو السحرية المنحدرة من التفكير الخيالي والتي أصبحت مقبولة اجتماعيا[٢٤] ويمكن أن تشير الخرافات الى موضوع أو فكرة أو سلوك أو تصرف وتظهر في المواقف الحرجة التي تتضمن الخطر أو

عدم الاستقرار ازاء المستقبل واحداث الصدفة كالزلازل والفيضانات أو حول البحر والطيران، من ذلك قوله (حطّ على الارض) .

فالبحر هنا هو سؤال عظيم يتجسد في ذاته لانه يجسد تكوين الارض في الاساطير اليونانية القديمة التي تقول ان البحر هو حقيقة خرافية تنبع من عقلية الانسان في اول تكوينه لان البحر يتماهى مع العناصر الاربعة (الماء ، الهواء ، التراب ، النار)[٢٥] لقد مثّل البحر هنا نوعا من الاسطورة والخرافة (حطّ على الارض) وهذا ما نلمسه عند المصريين القدماء او الاساطير الهندية القديمة اذ ان الماء يتمثل في شكل من الطقوس التي تحمل في طياتها حالة من التجمع الكرنفالي الذي اصبح صورة من صور العيد في كل سنة يتجمع حوله الناس ، ان هذا البحر المجنون الذي نتماهى معه في حالة انبثاق الاعماق ليخلق شكلاً من التضاد الذي يمتزج فيه (الخير والشر ، الحب والحقد) والذي تسطر في كلمات الشاعر في سياق النص الشعري ممثلاً اعلى درجات الحضور مما يؤكد ان البحر هنا يرمز للوجود وما يموج فيه كما يرمز للحياة وتقلباتها وفوران المكنونات فيها :

ينبثق الحب

ينبثق الحقد نافورة

وجناحاً من الموج ينثال

ينحط .... ينداح

يزبد .... يغلي

يمج لهاث الحياة

ويرجع وجهاً لطفل ضحوك

يموج تحت الشعاع حريراً من البسمات

على حقله الواسع الازرق الاخضر[٢٦]

وقد استخدم الشاعر هنا لفظة (نافورة) لان البحر لايقف امام الحب الا متمرداً يموج بغضبه وسكونه في آن واحد وذلك لا يمكن ان نلمسه الا في البحر في قول الشاعر

ينبثق الحب

ينبثق الحقد نافورة

وهنا تحدث عملية مفارقة من خلال (ينبثق الحب*ينبثق الحقد) فكيف يكون حباً وحقداً في آن واحد ؟ وكيف تكون عملية انبثاق الحب والحقد في نافورة واحدة؟ وبعد هذه العاصفة التي خلقت نوعاً من عدم التوازن يرجع الشاعر الى موروث الذاكرة القديمة ليخرج لنا بصيغة طفل ضحوك في قوله :

ويرجع وجهاً لطفل ضحوك

يموج تحت الشعاع حريراً من البسمات

على حقله الواسع الازرق الاخضر

إذ تمثل الصورة براءة الحب الاول تحت تموجات الواقع الاجتمـــاعي والاقتـــصادي والسياسي من خلال قوله :

البحر – هذا السؤال الكبير–

لماذا يثور ويهدأ في حومة واحدة؟

أيقيّده الصخر والشاطئ المترصد؟

نجد في القصيدة انشطار الذات الشاعرة ، فالشطر الاول يحمل في القصيدة الـــسؤال الكبير الذي يتكرر عبر انشطار الاستفهام في قوله

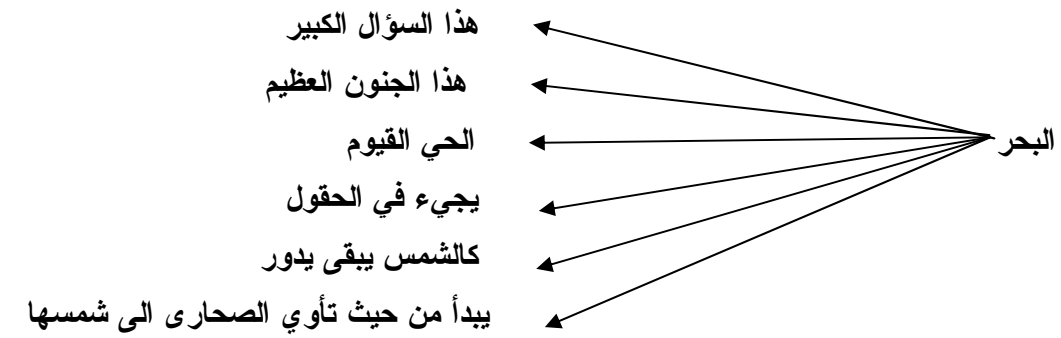

ومن خلال هذه العبارات في سياق النص الشعري حاول الشاعر ان يضيء لنا هـــذا السؤال العظيم امام حجم البحر وعمقه وكأن شاعرنا حاول في هذا السؤال ان يجاوب عن هذا البحر المجنون او يبحث في احشائه عن الجواب الذي لا يكون الا في تماهي الانا الشاعرة مع الموضوعية التي لا تستطيع اكبر المجهرات والعلوم ان تستكشفها الا عن طريق جمع الشاعر هذا البحر العظيم العملاق وتطويعه ليصبح بيده لعبة يحاول ان يستكشفها وتستكشفه ليـــصنع منه انساناً متواجداً منفتحاً منغلقاً في آن واحد وليحدثنا هذا البحرعن اهواله وعن نفسه ورعبه وخوفه ، فالسؤال هنا لماذا يثور ويهدأ في حومة واحدة ؟

البحر – هذا السؤال الكبير –

انها قوى الوجود التي تصارع الشاعر في بقائه وتهدد ذاته التواقة الى معرفة واجتياح المحظور من الاماكن ، فالتعبير هنا بصيغة الاشارة"هذا" عظّم حجـــم الـــسؤال ورفـــع مـــن خطورته من خلال لفظة (الكبير) فبداية الوجود هنا تساؤل، هذا التساؤل هو الذي دفع بالمشهد

الانساني نحو المعرفة واعطى للعلوم الاخرى هوية الوجود ، ولكن هذا التساؤل لـــم يـــستطع الشاعر ان يقوضه بالرغم من تقاذف اجاباته المتكررة عنه من خلال قوله

تقذفه الشمس والانجم الراقبات

بنار تشل احتدامه ؟.....

تسجنه الارض؟.....

تمتصه وتروضه....

فيشب وتسكنه الثورة الدائمة ؟

لكنه يبقى سؤالاً كباقي الاسئلة فليست الاجابة هي النهاية ، لان السؤال هنا يشبه طائر الفينيق فكل اجابة يتبرعم منها سؤال وتلك هي دوامة الحياة التي لـــن تنتهـــي لان الدهـــشة تؤسس الذات ، والذات تبحث عن الدهشة في صراع مستمر لإعطاء الحيـــاة قيمـــة الانتمـــاء والوجود للوصول الى الصدمة الجمالية ، تلك التركيبة السحرية التي تلون الشعر منذ الولادة :

احاول ان افهم اللون

والاوجه المتحولة الومض

اختصر الثورة الصعبة الموج في لوحة

وفي السر تضحك مني اشاراته وطلاسمه

وتبللني نسمة

ان مصطلحات سياسية يسارية ماركسية تنهض عبر النص كمصطلح الثورة الدائمـــة لتروتسكي ومصطلح الثورة الصعبة لجيفارا الثائر الكوبي لكن الشعرية استطاعت ان تأخذها من السياسة لتحتويها بحنان الشعر وهي محاولة مشروعة لكنها وقعت في زمنية البحث عـــن شيء يرتفع عن الفهم دون ان يعدم المحاولة ، لكنه على يقين بأن "طلاسمه" قد أوقعها الازل بـــ "المجهول" من خلال قوله :

البحر الحي القيوم

المتوضئ بالصمت وبالوقت

وبالحزن الصامد في الاحداق

لو لم يكن البحر فمن يغسل عهر الكلمات؟

وهكذا يظل البحر كامناً في سؤال القصيدة الفني والجمالي لا يفصح عنه الجـــواب إلا ليدخل في سؤال جديد وهذا يعني ان رمز البحر في القصيدة استطاع ان يتشظى الـــى دلالات كثرة اهمها : الوجود ، الحياة ، وما يموج فيها ، الخلاص من تناقضات الـــداخل ، البـــراءة الأولى والعودة بالانسان الى الحياة البدائية البسيطة ذات التفكير العفوي الذي يمثـــل الطفولـــة وفكر الانسان في بداية تكوينه يوم كان يخاف من الاشياء الخارجية المتمركزة في عالم لم يكن

يألفه ، فهو المرحلة الاولى من مراحل الاستكشاف التي حاول شاعرنا حقاً ان يسطرها بنوع من الخوف من المجهول الذي يمثل البحر .

كذلك مثّل البحر عالماً سحرياً اشبه بعالم الحلم الذي يتمثل لدى غاستون باشلار اشهر المنظرين له ابداعياً في استثمار الماضي الذاكرتي لبناء صورة تخيلية للمستقبل تنعتق من قيود الممكن التي تحجم قدرته على التناسل الحر وذلك الارتباط الذهني بمادة الحلم يؤدي بالشاعر الى الخروج عن الزمان والمكان – أي فقدان الارتباط بالتاريخ والحلم أو الرؤيا المستقاة من المعاناة الذاتية والجماعية ومن التراث القومي(٢٧) .

ويعني البحر في واحد من تفسيراته العودة الى المكبوت والانفتاح على اللاوعي ، فالشاعر وجد خلاصه في هذا البحر هادئاً ومتمرداً ومتماهياً بثورته الهائجه من الجو الفكري حوله وله الاختيار في ان يكون طليعياً او محافظاً او معبراً عن رؤى الذات مرة وعن اللاوعي الجمعي مرة اخرى من خلال رؤية تستوي فيها الازمنة الثلاثة كلها تنطلق من خبرة الماضي السحيق لتتلبس بلبوس عصرها وتتقمص مفاهيمه واشكاله التعبيرية التي تفيده في احتواء التطلعات ، وبذلك يكون الشعر تجسيدا لصراع الانسان في الوجود ومن اجل الوجود في الحياة وما بعد الحياة وكل شعر لا ينفتح على اللاوعي الجمعي ولا يستشرف المستقبل يسقط في الذاتية(٢٨) ، فالشاعر يجعل من البحر رمزاً لتموجات النفس الانسانية التي يجدها كل انسان في داخله الواعي واللاواعي .

كذلك عالم البحر عالم يسمح بالعودة الى حالة التخلص من المكبوت وكل ما علق به في الماضي من الآلام والأحزان متحرراً منها من خلال معانقة الحرية التي يمثلها البحر في تجلياته اللانهائية .

المصادر والمراجع :

١. ارتسامات اولى لوجه البحر ، د. ذنون الاطرقجي ، منشورات المركز الثقافي الاجتماعي ، ١٩٨٧ .
٢. الاسطورة في شعر السياب ، عبد الرضا علي ، وزارة الثقافة والفنون ، ١٩٧٨ .
٣. البحث عن ينابيع الشعر والرؤيا ، حوار ذاتي عبر الآخر ، عبد الوهاب البياتي ، محي الدين صبحي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، د.ت .
٤. التوظيف الفني للطبيعة في أدب نجيب محفوظ ، د. صالح هويدي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٢ .
٥. جماليات المكان ، جاستون باشلار ، ترجمة غالب هلسا ، دار الجاحظ ، بغداد ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠ .
٦. دلالة النهر في النص ، جاسم عاصي ، الموسوعة الثقافية ، بغداد ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٤ .
٧. ربيع الفكر اليوناني ، د. عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٩ .
٨. الرمز والرمزية ، في الشعر المعاصر ، د. محمد فتوح أحمد ، دار المعارف القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٤ .
٩. سايكولوجية الخرافة والتفكير العلمي ، عبد الرحمن العيسوي ، دار الجامعية ، ٢٠٠٦ .
١٠. العنوان وسيموطيقيا الاتصال الادبي ، د. محمد فكري الجزار ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٨ .
١١. لسان العرب لابن منظور ، ابو فضل جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري ، المؤسسة المصرية للتأليف والانباء والنشر ، د.ت .
١٢. اللغة الشعرية ، دراسة في شعر حميد سعيد ، محمد كنوني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٧ .
١٣. معجم مقاييس اللغة ، ابو الحسن احمد بن فارس بن زكريا ٣٩٥هـ ، تحقيق : عد السلام هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٤. المفارقة وصفاتها ، دي سي ميوك ، ترجمة : عبد الواحد لؤلؤة ، دار المأمون ، بغداد ، الطبعة الثانية ، د.ت .
١٥. النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز ، د. حسن محمد حسن ، دار التنوير للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٣ .

الدوريات :

١. التفاعل بين النص والقارئ ، فولفانغ ايزر ، مجلة دراسات ادبيـــة ، العـــدد (٦) لـــسنة ١٩٩٢ .

٢. السيموطيقيا والعنونة ، جميل الحمداوي ، مجلة عالم الفكـــر ، الكويـــت ، مجلـــد ٢٥ ، عدد ٣ ، ١٩٩٧ .

٣. في القراءة والتأويل ، د. حبيب مؤنسي ، مجلة المركز الادبي ، العـــدد ٤٤٠ ، كـــانون الاول ، سنة ٢٠٠٧

٤. المفارقة في شعر أمل دنقل ، د. سامح الرواشدة ، مجلة دراسات ، مجلد ٢٢ ، العدد ٦ ، سنة ١٩٩٥.

الهوامش :

(١) ينظر : دلالة النهر في النص ، عاصم عاصي ، ٧ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ٨ .
(٣) ينظر : التوظيف الفني للطبيعة في أدب نجيب محفوظ ، د. صالح هويدي ، ٩ .
(٤) المصدر نفسه ، ٩.
(٥) المصدر نفسه ، ٧٢ .
(٦) الرمز والرمزية ، محمد فتوح أحمد ، ٧٥ .
(٧) ينظر: لسان العرب لابن منظور،٤١/٤، ومقاييس اللغة لابن الحسن بن فارس، ٢٠١/١ .
(٨) دلالة النهر في النص ، ١٠ .
(٩) المصدر نفسه ، ١١ .
(١٠)ينظر : العنوان وسيموطيقيا الاتصال الادبي ، د. محمد فكري الجزار ، ٧٦-٨٢ ، والسيموطيقيا والعنونة ، جميل الحمداوي ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، مجلد ٢٥ ، عدد ٣ ، ١٩٩٧ ، ٩٦-٩٧ .
(١١)ينظر : اللغة الشعرية ، دراسة في شعر حميد سعيد ، محمد كنوني ، ٢٧١-٢٧٤ .
(١٢)ارتسامات أولى لوجه البحر ، ٦ .
(١٣)ينظر : في القراءة والتأويل ، د. حبيب مؤنسي ، مجلة المركز الادبي ، العدد ٤٤٠ ، كانون الاول ، سنة ٢٠٠٧ ، ٥ ، والتفاعل بين النص والقارئ ، فولفانغ ايزر ، مجلة دراسات ادبية ، العدد (٦) لسنة ١٩٩٢ : ١٤٥ .
(١٤)ارتسامات أولى لوجه البحر ، ٧ .
(١٥)المصدر نفسه ، ٨ .
(١٦)المصدر نفسه ، ٨ .
(١٧)المفارقة وصفاتها، دي سي ميوك، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة،٣٥ ، والمفارقة في شعر أمل دنقل، د. سامح الرواشدة ، مجلة دراسات ، مجلد ٢٢ ، العدد ٦ ، سنة ١٩٩٥ ، ٣٧٨٨ .
(١٨)ارتسامات أولى لوجه البحر ، ٨ .
(١٩)المصدر نفسه ، ٩ .
(٢٠)المصدر نفسه ، ٩ .
(٢١)ينظر : ربيع الفكر اليوناني ، د. عبد الرحمن بدوي ، ٢٣ .
(٢٢)ينظر: دلالة النهر في النص،٢٦ ، والاسطورة في شعر السياب، عبد الرضا علي، ١٤-١٥.
(٢٣)ارتسامات أولى لوجه البحر ، ٩ .
(٢٤)ينظر : سايكولوجية الخرافة والتفكير العلمي ، عبد الرحمن العيسوي ، ٢١ .
(٢٥)ينظر : والنظرية النقدية عند هربرت ماركيوز ، د. حسن محمد حسن ، ١٦ .
(٢٦)ارتسامات أولى لوجه البحر ، ٩ .
(٢٧)ينظر : جماليات المكان ، جاستون باشلار ، ترجمة غالب هلسا : ٤٥ .
(٢٨)ينظر : البحث عن ينابيع الشعر والرؤيا ، حوار ذاتي عبر الآخر ، عبد الوهاب البياتي ، محي الدين صبحي : ٨ .